راسة نقدية

تجذرات الظمأ في شجرة القمر لنازك الملائكة

نازك الملائكة

د. صدام فهد الأسدي

–

لماذا شجرة القمر؟أولا في شجرة القمر ,التي أصدرتها الشاعرة عام ١٩٦٧م رؤى متنوعة والديوان يضم(٣١)قصيدة منها على الطريقة الحديثة(١٢) قصيدة وعلى الطريقة القديمة(١٩) قصيدة، ثانيا–انطلق من رؤى الناقد البصري عبد الجبار البصري (قصيدة شجرة القمر جديرة بان نقف معها شوطا اطول ،وان نوليها عناية اكثر)١ولابد من الكشف عن ظاهرة في هذا الميدان ،والكل يعلم بان نازك(ذات حاسة شديدة في انفعالاتها قد تكون فيها بعض الغرابة،فهي تتاثر حتى بالمواقف الاعتيادية البسيطة وتنفعل فيها)٢واجد دون شك بانها رسمت فضاءات متنوعة تنطلق من ذاتها التي تحمل خيبة الامل رغم نداء قلبها النابض بالحب ، واجد السامرائي مصيبا في قوله(ان نازك تعلم بان ماتطلبه مستحيل)٣ ولكن هل نتفق جميعا بان الشاعريخوض معركته في كل الساحات دون ان يستسلم، ومادامت (الاشياء والاشكال هي المظاهر الحسيةالتي تحدث توترا في الاعصاب وحركة في المشاعر)٣

من هنا اقتطف من بستان نازك الشعري زهرة واحدة اسميها (الظمأ)واخترق الدلائل الفكرية والرمزية دون التشبث بمرجع لغوي لان الجميع على علم بمدركات المفردة التي اخترتها وهي ترتبط بالفم والشفة وارى الكأس معادلا موضوعيا يلف تلك الرؤى

تعال معي قليلا لعنوانات نازك(شظايا ورماد–شجرة القمر – سايكولوجية الشعر الا ترى السين والشين قد اخذت رصفا روحيا في مدارك الشاعرة ويؤيد قولي ماذكره الدكتور عمران الكبيسي(نازك بشكل خاص تكثر من حرفي(السين والشين)لايثار نازك للحروف ذات النغم الواضح،لاعتمادها كثيرا على موسقى الالفاظ،بالاضافة الى ان اغلب الكلمات التي يشترك حرف الشضين في تركيبها الفاظ موحية(شعر–شمس–شفة–شذى))٤ فالعنوان شجرة القمر

يضم في باطنه الكثير من المستهلات التي اشرت اليها والتي سيكون الظما واحدا منها، وهي ترتصف في دلالة الحرمان في القصيدة (شجرة القمر :(

وماكان يغفو اذا لم يمر الضياء اللذيذ

على شفتيه ويسقيه اغماء كأس نبيذ٥

ان مرجعيات القص معروفة لدى المختصين في هذه القصيدة،فهي دلالة على (العاطفة المهزومة وخيبة الامل التي سيطرت على نازك تصورها للقاء صديق اسدلت عليهما ستائر النسيم اجواء حالمة وقت الغروب على حافة النهر،وفجأة تظهر على سطح الماء سمكة ميتة ،لقد رمزت الى الزمن في اظهارها السمكة ميتة معترضة على هذا الموقف)٧ وسرعان ماتفصح الشاعرة عن داخلها ويطفح الكيل في مسك الختام :

وهمسا كاصداء نبع تحدر في عمق كهف٦

يؤكد ان الغلام وقصته حلم صيف وعند الانتقال الى القصيدة الثانية من الديوان يتغير الانفعال الى رؤى جديدة دالة على ظمأ اخريتجسد الحوار في تفرعاته الروحية في قولها :

وقال لهم قائل اننا شربنا الاسى في ثنايا الكوؤس٧

وقد نرى دلالة الكأس جمعا لكبير صورة الحرمان والظمأ الشديد الذي يتسرب للكل وحين تنتقل الى الفرح لايغيب الظمأ من دائرة الحرمان وهي تفرح لجمهوريتها :

فرحة عطشان ذاق الماء٨

فكيف تسلم الحلم بعد ذوق حلاوته :

انا ذقنا سكرها بعد الحرمان٩

وقد اخذت دلالة الظمأ من الصحراء التي تعاني من الحرمان بعدم سقوط المطر وهي تصبر على هذا :

وكم من صحار يعيش التعطش في رملها١٠

لو دققنا بعمق عن لفظة التعطش وليس العطش المباشر في القاء المسؤولية على الصانع المسبب والاجابة تجدها واضحة عند الشاعرة :

رويت تعطشها بدموعي ومن اجلها١١

وحين تسترق الانظار الى اغانيها الخمس يكون مستهلها:مرمزا لقصيدة نظمتها عام ١٩٥٧(وفي هذه الاغنيات تضع بمهارة سيكولوجية فائقة جدا لتجربتها المرة وهي تعبر بدقة عن الطريق الذي سلكته للخروج من المأزق)١٢

مهدي لياليا الاسى والحرق

ساقي مآقينا كؤوس الارق١٣

انها تبدى الاغنية الاولى بتعريف الالم فنحن الذين وجدناه على الدرب مصادفة ذات صباح مطير فمنحناه مكانا في نفوسنا، وفي الثلنية عن مصدر الالم وفي الثالثة كيف نتغلب على الظمأ

فشتان بين المهدي والساقي وكلاهما يصبران لوعة وحرمانا للشاعرة ،ولن يتوقف الظمأ الروحي وهي تغني لمشغول في اذار الندي لترش جبين المنتظر بالطيب والترحاب ولكن بلوعة وحرمان ظاهرين :

ونهديك الندى والعطر كأس شراب

حبيبي فافتح الابواب ١٤

وهي تعود مع القمر تطرق الشباك عبر الصخر والاشواكولكن الابواب ترفضها ويضيع الامل ويظل الكأس فارغا من الامل ولكنها تجتزى من الشاعر روبرت بروك فكرة وتناصا في قصيدتها(ولكنها ستكون الاخيرة)،قال فيها الناقد البصري(هناك قصائد معربة بتصرف يصح ان تكون احداها خاتمة لتجربتها تبدبتصوير حالة اكتفاء وجداني ،ووضع حد لعلاقات عاطفية مارسها احدهم قبل ان يصل الى حلوته الاخيرة ،وكأن الشاعرة المترجمة تشير بها الى طرف خفي في حياتهما الزوجية)اية حياة لانعلم الا الالفاظ تفصح عن الدلالةوهي تعطي اثمن ما عندها:،وكا هو الظمأالى الحرية يحتاج المشاق فان الحياة الزوجية في ظمأ مثله

اجل انا اعطيت اثمن ما منحته الحياه

كؤوس الهوى البلسمي العطر ١٥

كما نرى انه كاس بلسمي من طراز تريده الشاعرة ، وقد سكرت بافرحها وبلغت الذرى وهي تسكب الدموع الغزيرة لشرب الكأس

وثمة ظما اعمق واعلى وهي تنشد للقمر اغنية في شكل عمودي :

كإِس حليب مثلج مترف ام جدول سائل من الصدف ١٦

تضع المستهل اشارة للظما ثم تتساءل ثلاث مرات –ام غسق–ام حق عطر–ام خد مزنبق،كلها تريد ان تقدمها للقمر وهي عاشقة القمر

وتؤكد في المقطع الاخر بانها تذب شظايا اشعة ورؤى وتنفض جناح صقرها في الهواء كله من اجله

:لولاك لم ترقص الظلال ولم تبرد كؤوس الزنابق البضة١٧

,وتظهر الدلالة الرمزية اشد وقعا في قصيدتها (اغنية حب للكلمات (

فيم نخشى الكلمات

وهي احيانا اكف من ورود

باردات العطر مرت عذبة فوق الخدود

وهي احيانا كؤوس من رحيق منعش

رشفتها ذات صيف شفة في عطش١٨

وقد وضح الامر بالاشارة التي ذكرها الدكتور الكبيسي في تكرار حرفي الشين والسين(نخشى–كؤوس–شفة–رشفتها–عطش) وتاتي دلالة العطش بمرجعيات السقي :

عصفورا عطشانا لايحلم ان يسقى١٩

وفي قصيدة(ثلاث اغنيات عربية)تبدأبالنخيل دلالة الاصالة والشموخ ثم تنطلق للينابيع دلالة تمنحها الكأسية الامتلاء والروي :

حيث النخيل السامق المزدهي حيث الصحارى المحرقات الرمال

حيث الينابيع وكاساتها تقطر شهدا وتغذي التلال٢٠

ان المفارقة واضحة بين النخيل السامق الشامخ بصبره على العطش وبين الينابيع الصافية التي تحرق كؤوسها للارواءكي تغذي الادنى من الجبال ومع الاغنيات يتكون عنصر المستهل ويصف الطائر الذي القى ظله الضخم متحديا المحال

وفي تداعيات اخرى نجد (ان شيأ يتغلغل في وعينا مثلما تتسرب المياه في باطن الارض فتمصها جذور الشجر فترتوي دون ان نلاحظ ذلك مباشرة) ٢١ وهذا ما تكشفه قصيدة خصام دالة عن واقعية لاتزويغ فيها وتنقلها الشاعرة نقلا حيا :

وها نحن مختصمان دفنا الوئام

وراء التوتر في قعر الفاظنا البارده

ولم نبق كأسا ولامنهلا للغرام

وبعد ماذا يمكن القول بعد هذا الظمأ المباشر دون ستار ٢٢

ويبدو واضحا بان(الكلمة ليست مجرد صوت له دلالة وانما هي وجود وحضور له كيان وجسم) ٢٣ وهذا ماوجدناه في قصيدتها(نحن وجميلة) والمعروف عن الثائرة موقفها الرائد في الجزائر :

وانت حملت القيود الثقيلة

وحين تحرقت عطشى الشفاه الى كأس ماء

حشدنا اللحون وقلنا سنسكتها بالغناء ٢٤

هذه اللفظة لاتدل على عطش ذاتي بل عن روى روح تعشق الانسان الثائر المدافع عن ارضه وكيانه وموقفه ولم تصف الاحتراق الا بالعطش

ولم تنس ذاتها فلها حوار مع الوردة :

ناديت الوردة ذات صباح

ياوردة اني عطشوفرنت وانتفضت وابتسمت،وجها ،قلبا شفة رمشا٢٥

لكنها في مقطع اخر من القصيدة تزرع الامل :

)ان شاء الله) تسابيح وصدى اجراس

وبشاشة كأس لامس كأس٢٦

انها لن تغادر الامل رغم الظمأ الشديدولكن في حدود الرجاء وفي اعلان الوحدة الثلاثية ١٩٦٣م تقول بعد ظمأ وانتظار،هذا الرجاء الذي انبثق من رؤى تل الرمل الذي عرفته في طفولتها يوم كانت طفلة في الروضة وهو نقطة انطلاقها :

كنا نراها في ضباب الكرى ملفوفة الهيكل بالمستحيل

كنا شفاها عطشت والتظت وكان مرآها يروي الغليل٢٧

هكذا يرفض الظمأ من شاعرة تعيش الامل لايدل على نظرة حالكة للحياة كما يتصور البعض (فالليل يرد مقترنا بلفظة العيش او الوجود او الحياة ومن هذه القرينة ياخذ دلالته الرمزية ويكون ليلا محبوبا) وهي القائلة بلسانها

ان اكن عاشقة الليل فكأسي مشرق بالضوء والحب الوريق٢٨

وقد يتحول الظمأ الى وجع اكبر عندما تفقد الامل بالوحدة العربية :

وتركنا انهارنا تسكب الماء رحيقا في اكؤس الغرباء ٢٩

وتفقد الامل اكثر حين ترى الحلم غيمة صيف كاذبة لا تمطر :

يا فضاء مرحا لدن البروق

يشرب الانجم كاسا من رحيق٣٠

وعندما تصف مدينتها الغارقة وترثي بغداد التي اغرقها فيضان ١٩٥٤ تصف صحوة المدينة الظمأى "

وتصحو المدينة ظماى وتبحث عن امسها

وماذا تبقى سوى الموت والملح في كاسها ٣١

بهذه الدلالة المتشائمة تبذر نازك خيوط اليأسباحثة عن البديل "

واخيرا اتيت انت واسلمت كؤوسي الى شفاه الصباح ٣٢

ثم تسترسل بمن فجر الاغنيات لها :"

لتصب الصباح فيها وتسقينا بها كؤوسا مشغوفة الحافات٣٣

ويكون مهر التضحية رخيصا عند الشاعرة عندما تقدم الدم للحرية :

ان تظماي فبالدم المنعش اختاه لانبخل٣٤

انها تتفنن بقتال الظمأ الذي لامهرب عنه ومنه وهذا الظمأمات في داخلها عندما تمنت ان تدفن في العراق ولكنها عطرت مصر بجثمانها وارسلت للعراق روحها اجنحة ترفرف في سماء الحرية،وارصف في مسك الختام قولا للناقد البصري يؤكد دلالات الظمأالذي درسته

قائلا(تتخلى الشاعرة نازك في شجرة القمر عن الصور المعتمة والاجواء القاتمة وتبحث عن الصور المشرقة الوضاءة)٣٥

وبعد هل من يسأل لماذا اسمتها الشاعرة شجرة القمر وما الرمزية المطلقة فيها؟ واقول مؤيدا رأي البصري(اذا صح ما نذهب اليه يمكن اعتبار الشجرة رمزا للمرأة الام او المتزوجة ،اما القمر فهو رمز للمراة العذراء،وهذا المعنى له جذوره الشعبية فقد اعتدنا تشبيه الحسناء بالقمر اوقمر الزمان او بدر البدور)٣٦

واجد الظمأ دالة على الفرح واترك الامر للقراء والباحثين.